المُنْقِذ مِنَ الضَلَال

والمُوْصِلُ اِلي ذِي العِزَة والجَلَال

[للامام ابي حامد محمّد بن محمّد الغزالي]

يطلب من المهد السلفي

فتح العلوم كواكيان - كديري - جاتيم



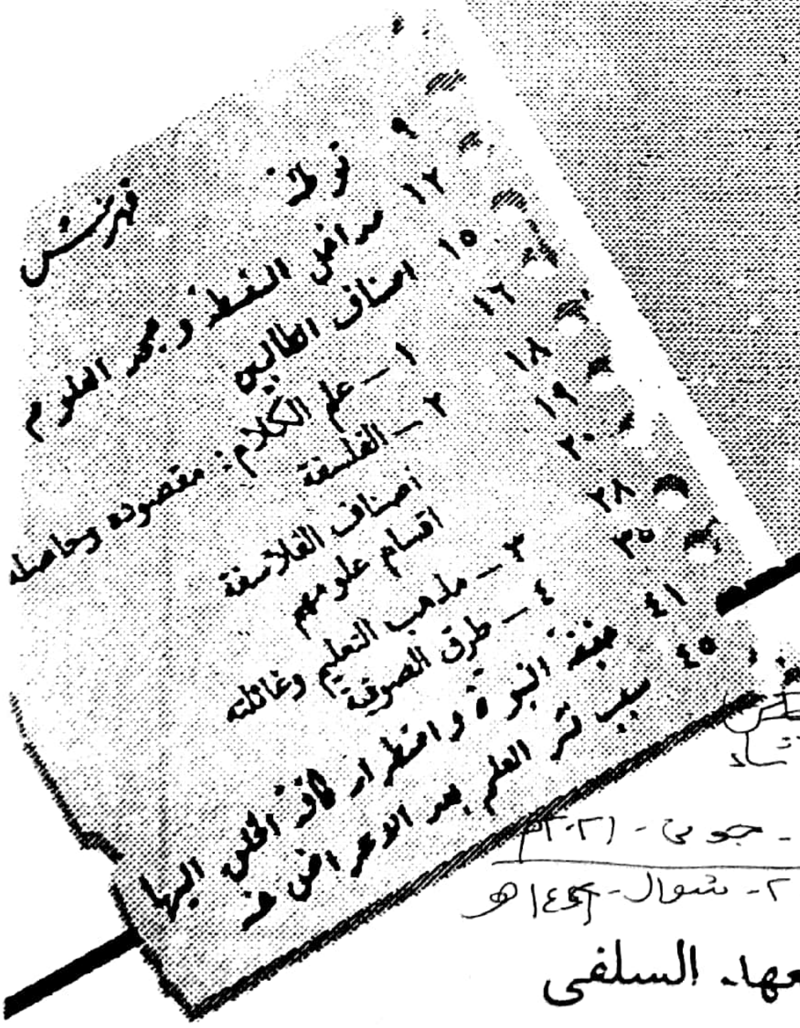
08/2021/06
Rp: 13.000
Kwagean

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المنقذ من الضلال

والموصل إلى ذي العزة والجلال

(للامام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي)



أول القراءة يوم
الساعة بعد المغرب الاستاذ
في التاريخ ٩ - جون - ٢٠٢١
٢٨ - شوال - ١٤٤٢ هـ

يطلب من المعهد السلفى

فتح العلوم

KWAGEAN-KEDIRI-JATIM
Telp : (0354) 395103

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يفتتح بحمده كلّ رسالة ومقالة، والصلاة على محمد المصطفى صاحب النبوّة والرسالة، وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلالة.

أما بعد: فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفاع الاستبصار، وما استفدته أولاً من علم الكلام، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوّف وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة، وما دعاني الى معاودتي بنيسابور بعد طول المدة، فابتدرت لإجابتك إلى

---

٥ ملاحظة: اعتدنا هنا الطبعة الخامسة لكتاب «المنقذ من الضلال» المنشورة في دمشق عام ١٣٧٦ هـ. [١٩٥٦ م.] و التي حقّق في نصها و قدم له الدكتور جميل صليبا و الدكتور كامل عياد. اللجنة

مَطْلَبَكَ ، بعد الوقوفِ على صِدْقِ رَغْبَتِكَ ، وقلتُ مُستعيناً بالله ومُتوكِّلاً عليه ومُستوفِقاً منه ، ومُلتجئاً إليه .

اعلَمُوا – أحسنَ الله (تعالى) إرشادَكم ، وألانَ للحقِّ قِيادَكم – أنّ اختلافَ الخلقِ في الأديانِ والمِلَلِ ، ثم اختلافَ الأئمةِ في المَذاهبِ ، على كثرةِ الفِرَقِ وتبايُنِ الطُّرُقِ ، بحرٌ عميقٌ غرِقَ فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلّون ، وكلُّ فريقٍ يزعمُ أنه الناجي ، و(كلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِم فَرِحُونَ) وهو الذي وعدَنا به سيّدُ المرسلين ، صلواتُ اللهِ عليه ، وهو الصادقُ الصَّدوقُ حيث قال : (ستفترقُ أمّتي ثلاثاً وسبعين فرقةً ، الناجيةُ منها واحدةٌ) فقد كادَ ما وَعَدَ أن يكون .

ولم أزلْ في عُنفُوانِ شَبابي (ورَيْعانِ عُمري) ، منذُ راهقتُ البلوغَ قبلَ بلوغِ العشرين إلى الآن وقد أنافَ السِّنُّ على الخمسين ، أقتحمُ لُجّةَ هذا البحرِ العميقِ ، وأخوضُ غَمْرَتَه خَوْضَ الجَسورِ ، لا خَوْضَ الجَبانِ الحَذورِ ، وأتوغّلُ في كلِّ مَظْلَمةٍ ، وأتهجّمُ على كلِّ مُشكِلةٍ ، واتقحّمُ كلَّ وَرْطةٍ ، وأتفحّصُ عن عقيدةِ كلِّ فِرْقةٍ ، وأستكشفُ أسرارَ مَذهبِ كلِّ طائفةٍ ، لأميّزَ بين مُحِقٍّ ومُبطِلٍ ، ومُتسنِّنٍ ومُبتدِعٍ ، لا أغادرُ باطنيّاً إلا وأحبُّ أن أطّلعَ على باطنيّتِه ، ولا ظاهريّاً إلا وأريدُ أن أعلمَ حاصلَ ظاهريّتِه ، ولا فلسفيّاً إلا وأقصدُ الوقوفَ على كُنْهِ فلسفتِه ، ولا متكلّماً إلا وأجتهدُ في الاطّلاعِ على غايةِ كلامِه ومُجادلتِه ، ولا صوفيّاً إلا وأحرصُ على العُثورِ على سِرِّ صَفْوتِه ، ولا متعبّداً إلا وأترصّدُ ما يرجعُ إليه حاصلُ عبادتِه ، ولا زنديقاً مُعطِّلاً إلا وأتجسّسُ وراءَه للتنبّهِ لأسبابِ جُرأتِه في تعطيلِه وزندقتِه .

وقد كانَ التعطّشُ إلى دَرْكِ حقائقِ الأمورِ دأبي ودَيْدَني من أوّلِ أمري ورَيْعانِ عُمري ، غريزةً وفطرةً من اللهِ وُضِعَتا في جِبِلّتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلّت عنّي رابطةُ التقليدِ ، وانكسرتْ عليَّ العقائدُ الموروثةُ ،

على قُرْبِ عَهْدِ سِنِّ الصِبا ، إذ رأيتُ صِبيانَ النصارى لا يكون لهم نُشوءٌ إلا على التنصّر . وصِبيانَ اليهود لا نشوءَ لهم إلا على التهوّد ، وصِبيانَ المسلمين لا نشوءَ لهم إلا على الاسلام . وسمعتُ الحديثَ المرويّ عن رسول الله ﷺ حيث قال : « كلُّ مولودٍ يولَدُ على فِطرةِ الاسلام فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه » ، فتحرّكَ باطني الى (طلبِ) حقيقةِ الفطرةِ الأصليّةِ ، وحقيقةِ العقائدِ العارضةِ بتقليدِ الوالدَين والأستاذِين ، والتمييزِ بين هذه التقليداتِ ، وأوائلُها تلقيناتٌ وفي تمييزِ الحقِّ منها عن الباطلِ اختلافاتٌ . فقلتُ في نفسي : أولاً ، إنما مطلوبي العلمُ بحقائقِ الأمورِ ، فلا بدّ مِن طلبِ حقيقةِ العلمِ ما هي ؟ فظهر لي أن العلمَ اليقينيّ هو الذي ينكشفُ فيه المعلومُ انكشافاً لا يبقى معه رَيبٌ ، ولا يقارنه إمكانُ الغَلَطِ والوَهْمِ ، ولا يتّسعُ القلبُ لتقديرِ ذلك ، بل الأمانُ من الخطإ ينبغي أن يكونَ مقارناً لليقينِ مقارنةً لو تحدّى بإظهارِ بُطلانه مثلاً مَن يقلِبُ الحجرَ ذهباً والعصا ثُعباناً ، لم يُورِثْ ذلك شكّاً وإنكاراً ؛ فإني اذا علِمتُ أن العشرةَ أكثرُ من الثلاثة ، فلو قال لي قائلٌ : لا ، بل الثلاثةُ أكثرُ < من العشرة > بدليلِ أني أقلِبُ هذه العصا ثُعباناً ، وقلَبَها ، وشاهدتُ ذلك منه ، لم أشُكَّ بسببه في معرفتي ، ولم يحصُلْ لي منه إلا التعجّبُ من كيفيةِ قدرته عليه ! فأما الشكُّ فيما علِمتُه ، فلا .

ثم علِمتُ أن كلَّ ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقّنه هذا النوعَ من اليقين ، فهو علمٌ لا ثقةَ به ولا أمانَ معه ، وكلُّ علمٍ لا أمانَ معه فليس بعلمٍ يقينيّ .

مَداخِلُ السَفسَطة وجَحْدِ العُلوم

ثم فتّشتُ عن علومي فوجدتُ نفسي عاطلاً من عِلمٍ موصوفٍ بهذه الصفة إلا في الحِسّيات والضروريات. فقلتُ: الآن بعد حصول اليأس، لا مَطمَع في اقتباس المُشكلاتِ إلا مِنَ الجليّات، وهي الحِسّيات والضروريات. فلا بدّ من إحكامها أولاً لأتيقّنَ أنّ ثقتي بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريات، من جنس أماني الذي كان من قبلُ في التقليديات، ومن جنس أمانِ أكثرِ الخلق في النظريات، أم هو أمانٌ محقّقٌ لا غَدرَ فيه ولا غائلةَ له؟ فأقبلتُ بجدٍّ بليغٍ أتأمّل في المحسوسات والضروريات، وأنظرُ هل يمكنني أن أشكّكَ نفسي فيها؛ فانتهى بي طولُ التشكّك إلى أن لم تَسمَح نفسي بتسليم الأمانِ في المحسوسات أيضاً، وأخذتْ تتّسع للشكّ فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسّة البصر؛ وهي تنظر إلى الظلّ فتراه واقفاً غير متحرّك، وتَحكُم بنفي الحركة؟ ثم، بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعةٍ، تعرف أنه متحرّك وأنه لم يتحرّك بدفعةٍ < واحدةٍ > بغتةً، بل على التدريج ذرّةً ذرّةً حتى لم يكن له حالة وقوفٍ. وتنظرُ إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينارٍ، ثم الأدلّة الهندسيّة تدلّ على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا وأمثاله من المحسوسات يَحكُم فيها حاكمُ الحِسّ بأحكامه، ويكذّبه حاكمُ العقل ويخوّنه تكذيباً لا سبيلَ إلى مُدافعته. فقلتُ: قد بطلت الثقةُ بالمحسوسات أيضاً فلعلّه لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوّليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالاً. فقالت المحسوسات: بِمَ تأمن أن

تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى ، كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته .

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأيدت اشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس او عقل هو حق بالاضافة الى حالتك [التي أنت فيها] لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ! فاذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ، اذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي (لم) اذا غاصوا في انفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي ، اذ قال رسول الله ﷺ : « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة . فاذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . فلما خطرت لي هذه الخواطر ، (و)انقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل . فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك

النورُ هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظنَّ أن الكشف موقوف على الأدلّة المجرّدة فقد ضيّق رحمة الله [تعالى] الواسعة ، ولما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن «الشرح» ومعناه في قوله تعالى: «فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام». قال: «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب». فقيل: «وما علامته؟» فقال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة الى دار الخلود.» وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره.» فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهيّ في بعض الأحايين، ويجب الترصّد له كما قال عليه السلام: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها.»

والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجدّ في الطلب، حتى ينتهي الى طلب ما لا يُطلب. فإن الأوليات ليست مطلوبة، فإنها حاضرة. والحاضر إذا طُلب فُقد واختفى. ومن طلب ما لا يُطلب، فلا يتّهم بالتقصير في طلب ما يُطلب.

٨

أصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١ – المتكلمون: وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر؛

٢ – الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم؛

٣ – الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان؛

٤ – الصوفية: وهم يدّعون أنهم خواصّ الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته؛ و (من) شرط المقلّد أن لا يعلم أنه مقلّد، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده؛ وهو شعب لا يُرأب، وشعث لا يُلمّ بالتلفيق والتأليف، إلا أن يُذاب بالنار، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة.

فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق، مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنّياً بطريق الفلسفة، ومثلّثاً بتعليم الباطنية، ومربّعاً بطريق الصوفية.

* * *

١ — علم الكلام: مقصوده وحاصله

ثم إني ابتدأتُ بعلم الكلام فحصّلتُه وعقلتُه، وطالعتُ كتبَ المحقّقين منهم، وصنّفتُ فيه ما أردتُ أن أصنّف، فصادفتُه علماً وافياً بمقصوده، غيرَ وافٍ بمقصودي؛ وإنما المقصود منه حفظ عقيدةِ أهلِ السُنّة [على أهل السُنّة]، وحراستها عن تشويش أهلِ البدعةِ. فقد ألقى الله (تعالى) الى عِبادِه على لسان رسوله عقيدةً هي الحقّ، على ما فيه صَلاحُ دينِهم ودُنياهم، كما نطَقَ بمعرفته القرآن والأخبارُ. ثم ألقى الشيطان في وَساوسِ المبتدعة أموراً مخالِفةً للسُنّة، فلهِجُوا بها، وكادوا يشوّشون عقيدةَ الحقّ على أهلها. فأنشأ الله تعالى طائفةَ المتكلّمين، وحرّك دَواعيهم لنُصرةِ السُنّة بكلامٍ مرتّب، يكشِفُ عن تَلبيسات أهلِ البِدَعِ المحدَثة، على خلافِ السُنّة المأثورة؛ فمنه نشأ علمُ الكلام وأهلُه. ولقد قامَ طائفةٌ منهم بما ندَبهم الله (تعالى) اليه فأحسَنوا الذبَّ عن السُنّة والنِضالَ عن العقيدة المتلقّاة بالقبولِ من النبوّة، والتغييرِ في وجهِ ما احدثَ من البِدعةِ. ولكنّهم إعتمدُوا في ذلك على مقدّماتٍ تسلّموها من خُصومِهم، واضطرّهم الى تسليمِها: إمّا التقليدُ، أو إجماعُ الأمّةِ، أو مجرّدُ القبولِ من القرآن والأخبار. وكان اكثرُ خوضِهم في استخراج مُناقضات الخصوم، ومُؤاخذتِهم بلوازمِ مُسلَّماتِهم. وهذا قليلُ النفعِ في حقّ مَن لا يسلّمُ سوى الضروريّاتِ شيئاً أصلاً. فلم يكنِ الكلامُ في حقّي كافياً، ولا لِدائي الذي كنتُ أشكوه شافياً. نعم: لمّا نشأت صُنعةُ الكلامِ، وكثرَ الخوضُ فيه وطالتِ المدّةُ، تشوّقَ المتكلّمون الى مُحاوَلةِ الذبّ (عن السُنّة) بالبحثِ عن حقائقِ الأمورِ، وخاضُوا في البحثِ عن الجواهرِ والأعراضِ وأحكامِها. ولكن لمّا لم يكنْ ذلك مقصودَ عِلمِهم، لم يَبلغْ كلامُهم فيه الغايةَ القُصوى، فلم يحصُلْ منه ما يَمحَقُ بالكلّيّةِ ظُلُماتِ

الخِبْرةِ في اختلافاتِ الخَلْقِ . ولا أُبعِدُ أن يكونَ قد حَصَلَ ذلكَ لغيري ! بل لستُ أشُكُّ في حصولِ ذلكَ لطائفةٍ ، ولكن حُصولاً مَشُوباً بالتقليدِ في بعضِ الأمورِ التي ليست من الأوّليات !

والغرضُ الآن حكايةُ حالي ، لا الإنكارُ على مَنْ إستشفَى به ، فإنّ أَدْوِيةَ الشفاءِ تختلفُ باختلافِ الداءِ . وكم من دَواءٍ يَنتفِعُ به مَريضٌ ويَستضِرُّ به آخَر !

* * *

٢ - الفلسفة

ثم إني ابتدأتُ، بعد الفَراغ من علم الكلام، بعلم الفلسفة. وعلمتُ يقيناً أنه لا يقفُ على فسادِ نوعٍ من العلوم، مَن لا يقفُ على مُنتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل [ذلك] العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطّلع على ما لم يطّلع عليه صاحب العلم من غَورٍ وغائلة. وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدّعيه من فسادٍ حقاً. ولم أرَ أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمّته إلى ذلك. ولم يكن في كتب المتكلّمين، من كلامهم، حيث اشتغلوا بالردّ عليهم، إلا كلمات معقّدة مبدّدة، ظاهرة التناقض والفساد، لا يُظنّ الاغترار بها بغافلٍ عامّي، فضلاً عمّن يدّعي دقائق العلوم. فعلمتُ أن ردّ المذهب قبل فهمه والاطّلاع على كنهه رميٌ في عَماية. فشمّرتُ عن ساق الجدّ، في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرّد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلتُ على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاث مائة نفر من الطلبة ببغداد. فأطلعني الله سبحانه [وتعالى]، بمجرّد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة، على مُنتهى علومهم في أقلّ من سنتين. ثم لم أزل أواظب على التفكّر فيه بعد فهمه قريباً من سنة، أعاوده وأردّده وأتفقّد غوائله وأغواره، حتى اطّلعتُ على ما فيه من خداعٍ وتلبيسٍ، وتحقيقٍ وتخييلٍ، اطّلاعاً لم أشكّ فيه.

فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم، فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً؛ وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وَصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البُعد عن الحقّ والقُرب منه.

أصناف الفلاسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم

اعلم أنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون الى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

الصنف الأول: الدهريون، وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان وكذلك يكون أبداً. وهؤلاء هم الزنادقة.

والصنف الثاني: الطبيعيون، وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته، فاضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان. إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به. فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم. ثم إذا انعدمت، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا. فذهبوا (إلى) أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، [والحشر والنشر]، والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام.

فهؤلاء أيضاً زنادقة: لأن أصل الايمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر. وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته.

الصنفُ الثالثُ: الإلهيّونَ، وهم المتأخِّرون منهم [مِثلُ]: سُقراط، وهو أستاذُ أفلاطونَ، وأفلاطونُ أستاذُ أرِسطاطاليس، وأرِسطاطاليس هو الذي رتّب لهم المَنطِقَ، وهذّب [لهم] العلوم، وحرّر لهم ما لم يكن محرّراً من قبلُ، وأنضجَ لهم ما كان فجّاً من علومهم؛ وهم بجملتهم ردّوا على الصِّنفينِ الأوّلين من الدَّهريّةِ والطبيعيّةِ؛ وأوردوا في الكَشفِ عن فَضائحهم ما أغنَوا به غيرهم، وكفى اللهُ المؤمنينَ القِتالَ بتقاتُلِهم. ثمّ ردّ أرسطاطاليس على أفلاطونَ وسقراط، ومَن كان قبله من الإلهيّين، ردّاً لم يُقصِّر فيه حتى تبرّأ عن جميعهم؛ إلا أنه استبقى أيضاً من رَذائلِ كُفرِهم وبِدعتِهم بَقايا لم يوفَّق للنزوعِ عنها، فوجَبَ تكفيرُهم وتكفيرُ شِيعتِهم من المتفلسفةِ الإسلاميّين، كابنِ سِينا والفارابيّ وغيرِهم. على أنّه لم يَقُمْ بنقلِ علمِ أرسطاطاليس أحدٌ من متفلسفةِ الإسلاميّين كقيامِ هذَينِ الرجُلَين. وما نقلَه غيرُهما ليس يخلو عن تخبيطٍ وتخليطٍ يتشوّشُ فيه قلبُ المطالِعِ حتى لا يَفهَمَ؛ وما لا يُفهَمُ كيف يُردُّ أو يُقبَلُ؟ ومجموعُ ما صحّ عندنا من فَلسفةِ أرِسطاطاليس، بحسَبِ نَقلِ هذَينِ الرجُلَين، ينحصِرُ في ثلاثةِ أقسامٍ:

١ – قسمٌ يجبُ التكفيرُ به؛ ٢ – وقسمٌ يجبُ التبديعُ به؛ ٣ – وقسمٌ لا يجبُ إنكارُه أصلاً. فلنفصِّلْه.

أقسام علومهم

إعلمْ: أنّ علومَهم بالنسبةِ إلى الغرَضِ الذي نطلبُه ستّةُ أقسامٍ: رِياضيّةٌ، ومَنطِقيّةٌ، وطبيعيّةٌ، وإلهيّةٌ، وسياسيّةٌ، وخُلُقيّةٌ.

١ – أمّا الرياضيّةُ: فتتعلّقُ بعلمِ الحسابِ والهندسةِ وعلمِ هيئةِ العالَمِ، وليس يتعلّقُ شيءٌ منها بالأمورِ الدينيّةِ نفياً وإثباتاً، بل هي أمورٌ برهانيّةٌ لا سبيلَ إلى مُجاحَدتِها بعد فَهمِها ومعرفتِها. وقد تولّدت منها آفتانِ:

إحداهما: أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح [وفي] وثاقة البرهان كهذا العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم، استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين. وكم رأيت من ضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها [رتبة] البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل (قد) يلزمهم في غيرها، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني، وفي الإلهيات تخميني، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه. فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحد بالتقليد، لم يقع منه موقع القبول، بل تحمله غلبة الهوى، والشهوة الباطلة، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها.

فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم سرى إليه شرهم وشؤمهم، فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى.

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع. فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، ولكن

اعتقد أن الاسلام مبنيّ على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبّاً وللاسلام بغضاً ؛ ولقد عظم على الدين جناية من ظنّ أن الاسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرّض لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرّض للأمور الدينية ، وقوله ﷺ : « إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله (تعالى) لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله (تعالى وإلى الصلاة) » ، ليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرّف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما او مقابلتهما على وجه مخصوص . أما قوله (عليه السلام) : « لكنّ الله اذا تجلّى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً . فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

٢ — وأما المنطقيات : فلا يتعلّق شيء منها بالدين نفياً واثباتاً ، بل هي النظر في طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدّمات البرهان وكيفية تركيبها ، وشروط الحدّ الصحيح وكيفية ترتيبه . وأن العلم إما تصوّر وسبيل معرفته الحدّ ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان ، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو (من) جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات والإصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات ؛ ومثال كلامهم فيها قولهم : اذا ثبت أن كلّ « ا ب » لزم أن بعض « ب ا » ، أي اذا ثبت أن كل انسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان إنسان . ويعبّرون عن هذا بأنّ الموجبة الكلّية تنعكس موجبة جزئية . وأيّ تعلّق لهذا بمهمّات الدين حتى يجحد وينكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق الا سوء الإعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار ، نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ؛ وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنّهم عند الإنتهاء الى المقاصد الدينيّة ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل ؛ وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه

وراءه واضحاً ، فيظنّ أن ما ينقل عنهم من الكفريّات مؤيّد بمثل تلك البراهين ، فيستعجل بالكفر قبل الإنتهاء الى العلوم الإلهيّة .

فهذه الآفة أيضاً متطرّقة اليه .

٣ — وأما (علم) الطبيعيّات : فهو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة : كالماء والهواء والتراب والنار ، ومن الأجسام المركّبة : كالحيوان والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيّرها واستحالتها وامتزاجها . وذلك يضاهي بحث الطبّ عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسة والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه ، وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطبّ ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معيّنة ، ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة » . وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمّل يتبيّن أنها مندرجة تحتها . وأصل جملتها أن تعلم أن الطبيعة مسخّرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخّرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ — وأما الإلهيّات : ففيها أكثر أغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الإختلاف بينهم فيها . ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميّين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا . ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنّفنا كتاب « التهافت » . أما المسائل الثلاثة ، فقد خالفوا فيها كافّة الإسلاميين وذلك في قولهم :

١) إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجرّدة ، (والمثوبات) والعقوبات روحانية لا جسمانية ؛

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية، فإنها ثابتة أيضاً، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به.

٢) ومن ذلك قولهم: « إن الله تعالى يعلم الكليّات دون الجزئيات » ؛ وهذا أيضاً كفر صريح، بل الحق أنه: « لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ».

٣) ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته فلم يذهب أحد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل.

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم إنه عالم بالذات، لا بعلم زائد (على الذات) وما يجري مجراه، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك. وقد ذكرنا في كتاب « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة »، مما يتبين به فساد رأي من يتسارع الى التكفير في كل ما يخالف مذهبه.

٥ — وأما السياسيات: فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية (والإيالة) السلطانية، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الانبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الانبياء.

٦ — وأما الخلقية: فجميع كلامهم (فيها) يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها. وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق الى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا. وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها، وآفات أعمالها ما صرحوا بها، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها الى ترويج باطلهم. ولقد كان في عصرهم، بل في كل عصر، جماعة من المتألهين، لا يخلي الله

[سبحانه] العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الارض ، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الارض كما ورد في الخبر حيث قال صلى الله عليه وسلم : « بهم يمطرون وبهم يرزقون ومنهم كان أصحاب الكهف » . وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن ، فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان : آفة في حق القابل ، وآفة في حق الراد :

١) أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة : إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ، ينبغي أن يهجر ولا يذكر بل ينكر على [كل] من يذكره ، إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم ، فسبق الى عقولهم الضعيفة انه باطل ؛ لأن قائله مبطل ؛ كالذي يسمع من النصراني قوله : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » ، فينكره ويقول : « هذا كلام النصارى » ، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول ، أو باعتبار إنكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ! ؟ فإن لم يكن كافراً الا باعتبار إنكاره ، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه ، وإن كان ايضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول ، يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق . والعاقل يقتدي بسيد العقلاء علي رضي الله عنه (١) ، حيث قال : لا تعرف الحق بالرجال (بل) اعرف الحق تعرف أهله ، و(العارف) العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول : فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً ؛ بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب الرغام . ولا بأس على الصراف أن أدخل يده في كيس القلاب ، وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج ، مهما كان واثقاً ببصيرته ؛ وإنما يزجر عن معاملة القلاب القروي ، دون الصيرفي (البصير) ؛ ويمنع من ساحل البحر الأخرق ، دون السباح الحاذق ؛ ويصد عن مس الحية الصبي دون المعزم البارع .

ولعمري ! لما غلب على اكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة ، وكمال

(١) علي رضي الله تعالى عنه توفي سنة ٤٠ هـ. [٦٦٠ م.]

العقلِ (وتمامَ الآلةِ) في تمييزِ الحقِ عن (الباطلِ، والهدى عن) الضلالةِ، وجبَ حسمُ الباب في زجرِ الكافةِ عن مطالعةِ كتبِ أهلِ الضلالِ ما أمكن؛ اذ لا يسلمون عن الآفةِ الثانيةِ التي سنذكرها (أصلاً)، وان سلموا عن (هذه) الآفةِ التي ذكرناها.

ولقد اعترضَ على بعضِ الكلماتِ المبثوثةِ في تصانيفنا في أسرارِ علومِ الدينِ، طائفةٌ من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح الى أقصى غاياتِ المذاهبِ بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلماتِ من كلامِ الأوائلِ، مع أن بعضها من مولداتِ الخواطرِ — ولا يبعدُ أن يقعَ الحافرُ على الحافرِ — وبعضها يوجد في الكتبِ الشرعيةِ، وأكثرها موجودٌ معناه في كتبِ الصوفيةِ. وهب أنها لم توجد الا في كتبهم، فاذا كان ذلك الكلامُ معقولاً في نفسه، مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفةِ الكتابِ والسنةِ، فلم ينبغي أن يهجرَ ويتركَ؟ فلو فتحنا هذا البابَ، وتطرقنا الى أن يهجرَ كلُ حقٍ سبقَ اليه خاطرُ مبطلٍ، للزمنا أن نهجرَ كثيراً من الحقِ، ولزمنا أن نهجرَ جملةَ آياتٍ من القرآنِ وأخبارِ الرسولِ وحكاياتِ السلفِ وكلماتِ الحكماءِ والصوفيةِ، لأن صاحبَ كتابِ «إخوان الصفا» أوردها في كتابه مستشهداً بها، ومستدرجاً قلوبَ الحمقى بواسطتها الى باطله؛ ويتداعى ذلك إلى أن يستخرجَ المبطلون الحقَ من أيدينا بإيداعهم إياه كتبهم. وأقلُ درجاتِ العالمِ: أن يتميزَ عن العامي الغمرِ، فلا يعافُ العسلَ، وإن وجده في محجمةِ الحجامِ، ويتحققُ أن المحجمةَ لا تغيرُ ذاتَ العسلِ، فإنّ نفرةَ الطبعِ عنه مبنيةٌ على جهلٍ عاميٍ منشؤه أن المحجمةَ انما صنعت للدمِ المستقذرِ، فيظنُ أن الدمَ مستقذرٌ لكونه في المحجمةِ، ولا يدري أنه مستقذرٌ لصفةٍ في ذاته؛ فاذا عدمت (هذه) الصفةُ في العسلِ، فكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفةَ، فلا ينبغي أن يوجبَ له الاستقذارَ، وهذا وهمٌ باطلٌ، وهو غالبٌ على أكثرِ الخلقِ. فاذا نسبتَ الكلامَ وأسندته الى قائلٍ حسنَ فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلاً، وإن أسندته الى من ساءَ فيه اعتقادهم ردوه

وإن كان حقاً. فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال! وهذه آفة الردّ.

٢) والآفة الثانية آفة القبول: فإن من نظر في كتبهم، كإخوان الصفا، وغيره، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ربما استحسنها وقبلها، وحسن اعتقاده فيها، فيسارع الى قبول باطلهم الممزوج به، لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه، وذلك نوع استدراج الى الباطل.

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر. وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب. وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات. وكما يجب على المعزم أن لا يمس الحية بين يدي ولده الطفل، إذا علم أنه سيقتدي به ويظن أنه مثله، بل يجب عليه أن يحذره [منه]، بأن يحترز هو [في] نفسه [ولا يمسها] بين يديه، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله. وكما أن المعزم الحاذق اذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم، واستخرج منها الترياق وأبطل السم فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج اليه. وكذا الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده في كيس القلاب، وأخرج منه الإبريز الخالص، واطرح الزيف والبهرج، فليس له أن يشح بالجيد المرضي على من يحتاج اليه؛ فكذلك العالم. وكما أن المحتاج الى الترياق، اذا اشمأزت نفسه منه، حيث علم أنه مستخرج من الحية التي هي مركز السم [وجب تعريفه]، والفقير المضطر الى المال، اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب، وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض، هو سبب حرمانه الفائدة التي هي مطلبه، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفاً، كما لا يجعل الزيف جيداً، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلاً، كما لا يجعل الباطل حقاً.

فهذا (مقدار) ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها.

٣ - مذهب التعليم وغائلته

ثمّ إنّي لمّا فرغتُ من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما تزيّف منه، علمتُ أنّ ذلك أيضاً غير وافٍ بكمال الغرض، وأنّ العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدّثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق، فعنّ لي أن أبحث في مقالاتهم، لأطّلع على ما في كنانتهم. ثمّ اتفق أن ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف [عن] حقيقة مذهبهم. فلم يسعني مدافعته، وصار ذلك مستحثاً من خارج، ضميمة للباعث الأصلي من الباطن، فابتدأتُ بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم. وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولّدتها خواطر اهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم. فجمعتُ تلك الكلمات، (ورتّبتها) ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق، واستوفيتُ الجواب عنها، حتى أنكر بعض اهل الحق (منّي) مبالغتي في تقرير حجّتهم، فقال: هذا سعي لهم، فإنّهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها. وهذا الإنكار من وجه حقّ، فلقد أنكر أحمد ابن حنبل على الحارث المحاسبي (رحمهما الله)[١]، تصنيفه في الردّ على المعتزلة؛ فقال الحارث: الردّ على البدعة فرض؛ فقال احمد: نعم، ولكن حكيتَ شبهتهم أولاً ثمّ أجبتَ عنها؛ فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه، ولا يلتفت الى الجواب، او ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه؟!

وما ذكره احمد بن حنبل[٢] حقّ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر. فأمّا اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب [عنها] إلا بعد الحكاية.

(١) الحارث المحاسبي توفي سنة ٢٤٣ هـ. [٨٧٧ م.] في البصرة

(٢) احمد ابن حنبل توفي سنة ٢٤١ هـ. [٨٥٥ م.] في بغداد

نعم ، ينبغي أن لا يتكلف لهم شبهة لم [يتكلفوها] ؛ ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إليّ ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم ، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم . ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسي أن يظن بي الغفلة عن أصل حجتهم ، فلذلك أوردتها ، ولا أن يظن بي أني — وإن سمعتها — لم أفهمها ، فلذلك قررتها .

والمقصود ، أني قررت شبهتهم الى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها [بغاية البرهان] .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم . ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة — مع ضعفها — الى هذه الدرجة ؛ ولكن شدة التعصب ، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، والى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به ، فجاحدوهم في دعواهم : « الحاجة الى التعليم والمعلم » ، وفي دعواهم أنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم » . وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة الى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم ، وأنه لا بد وأن يكون (المعلم) معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم (هو) محمد ﷺ . فإذا قالوا : « هو ميت » ، فنقول : « ومعلمكم غائب . » ، فإذا قالوا : « معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل » فنقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم [وأتممت عليكم نعمتي] ﴾ » . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته .

فبقيَ قولهم : « كيف تحكمون في ما لم تسمعوه ؟ أبالنصّ ولم تسمعوه ، أم بالإجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف ؟ » فنقول : « نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله عليه السلام إلى اليمن : أن نحكم بالنصّ عند وجود النصّ ، وبالاجتهاد عند عدمه . (بل) كما يفعله دعاتهم إذا بعثوا عن الإمام الى أقاصي البلاد ، إذ لا يمكنه أن يحكم بالنصّ ، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة الى بلدة الإمام ، ولو أن يقطع المسافة ورجع فيكون المستفتي قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلّي بالإجتهاد ، إذ لو سافر الى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، فيفوت وقت الصلاة . فإذن ، جازت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظنّ . ويقال : « إنّ المخطئ في الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران » . فكذلك في جميع المجتهدات ، وكذلك أمر صرف الزكاة الى الفقير ، فربما يظنه فقيراً باجتهاده وهو غنيّ باطناً بإخفائه ماله ، فلا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ ، لأنه لم يؤاخذ الا بموجَب ظنه . فإن قال : « ظنّ مخالفه كظنّه » . فأقول : « هو مأمور باتباع ظنّ نفسه ، كالمجتهد في القبلة يتبع ظنه وإن خالفه غيره » . فإن قال : « فالمقلّد يتبع أبا حنيفة والشافعي[1] (رحمهما الله) أم غيرهما » . فأقول : « فالمقلّد في القبلة عند الإشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ » فسيقول : « له مع نفسه اجتهاد في معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ؛ فكذلك في المذاهب » .

فردّ الخلق الى الاجتهاد – ضرورة – الأنبياء والأئمة مع العلم بأنهم (قد) يخطئون ، بل قال رسول الله ﷺ : « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » . أي أنا أحكم بغالب الظنّ الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه ولا سبيل الى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدات ، فكيف يطمع في ذلك ؟

ثم ههنا سؤالان : أحدهما قولهم : « هبنا وإن صحّ في المجتهدات فلا يصحّ في

(١) ابو حنيفة نعمان توفي سنة ١٥٠ هـ . [٧٦٧ م .] في بغداد / محمد بن ادريس الشافعي ، توفي سنة ٢٠٤ هـ . [٨٢٠ م .] في القاهرة

قواعد العقائد، اذ المخطىء فيه غير معذور، فكيف السبيل اليه؟ فأقول:
«قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة، وما وراء ذلك من التفصيل، والمتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم. وهي الموازين التي ذكرها الله (تعالى) في كتابه، وهي خمسة ذكرتها في «كتاب القسطاس المستقيم». فإن قال: «خصومك يخالفونك في ذلك الميزان»، فأقول: «لا يتصوّر أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه، [إذ لا يخالف فيه] أهل التعليم، لأني استخرجته من القرآن وتعلّمته منه، ولا يخالف فيه أهل المنطق، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق، غير مخالف له، ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات، وبه يعرف الحق في الكلاميات». فإن قال: «فإن كان في يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق؟» فأقول: «لو أصغوا إليّ لرفعت الخلاف بينهم؛ وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب القسطاس المستقيم، فتأمّله لتعلم أنه حق وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا؛ ولا يصغون [اليه] بأجمعهم! بل قد أصغى إليّ طائفة، فرفعت الخلاف بينهم. وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم؛ فلم لم يرفع الى الآن؟ ولم لم يرفع عليّ، رضي الله عنه، وهو رأس الأئمة؟ او يدّعي أنه يقدر على حمل كافّتهم على الإصغاء قهراً؛ فلم لم يحملهم الى الآن؟ ولأيّ يوم أجّله؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته الا زيادة خلاف وزيادة مخالف؟ نعم! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر لا ينتهي الى سفك الدماء، وتخريب البلاد وإيتام الأولاد، وقطع الطرق، والإغارة على الأموال. وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف [من الخلاف] ما لم يكن بمثله عهد». فإن قال: «ادّعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحيّر بين المذاهب المتعارضة، والاختلافات المتقابلة، لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك، ولأكثر الخصوم يخالفونك، ولا فرق بينك وبينهم»، وهذا هو سؤالهم الثاني، فأقول: «هذا أولاً ينقلب عليك، فإنك اذا دعوت هذا المتحيّر الى نفسك فيقول المتحيّر،

ثم صِرتَ أَوْلى من مُخالفيك، وأكثر اهل العلم يخالفونك؟ فليتَ شعري! بماذا تجيبُ؟ أتجيبُ بأن تقول: إمامي منصوص عليه؟ فمن يصدّقك في دعوى النصّ، وهو لم يسمع النصّ من الرسولِ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابُق اهل العلم على اختراعك وتكذيبك. ثم هَبْ أنه سلّم لك النصّ؛ فإن كان متحيّراً في اصل النبوّة، فقال: هَبْ أن إمامك يُدلي بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول: الدليل على صِدقي أني أُحيي أباك، فأحياه، فناطقني بأنه مُحِقّ، فبماذا أعلم صِدقه؟ ولم يعلم كافةُ الخلق صِدقَ عيسى عليه السلام بهذه المعجزة، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يُدفع الا بدقيق النظر العقليّ؛ والنظر العقليّ لا يوثق به عندك، ولا يُعرف دلالة المعجزة على الصِدق ما لم يُعرف السِحْر والتمييز بينه وبين المعجزةِ، وما لم يُعرف أن الله لا يُضِلّ عِباده. وسؤال الإضلالِ وعُسْر [تحرير] الجواب عنه مشهور — فبماذا تدفع جميع ذلك؟ ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مُخالِفه! فيرجع إلى الأدلة النظرية التي يُنكرها، وخصمه يُدلي بمثل تلك الأدلة وأوضح منها. وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً، لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه.

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ناظروهم، فلم يشتغلوا بالقلب، بل بالجواب، وذلك مما يطول فيه الكلام، وما لا يسبق سريعاً الى الأفهام، فلا يصلح للإفحام. فإن قال قائل: فهذا هو القلب، فهل عنه جواب؟ فأقول: نعم! جوابه أن المتحيّر لو قال: انا متحيّر، ولم يعيّن المسألة التي هو متحيّر فيها، يقال له: أنت كمريض يقول: انا مريض ولا يعيّن مرضه، ويطلب علاجه. فيقال له: ليس في الوجود علاج للمرض المطلق، بل لمرض معيّن: من صداع أو إسهال أو غيرهما. فكذلك المتحيّر ينبغي أن يعيّن ما هو متحيّر فيه؛ فإن عيّن المسألة عرّفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة، التي لا يفهمها أحد الا ويعترف بأنه الميزان الحق، الذي يوثق بكلّ ما يوزن به، فيفهم الميزان،

وَيَفْهَمُ منه أيضاً صحة الوزن، كما يَفْهَمُ مُتعلِّم علم الحساب نفس الحساب، وكونَ المحاسبِ المعلمِ عالماً بالحساب وصادقاً فيه. وقد أوضحتُ ذلك في كتاب «القسطاس المستقيم» في مقدار عشرين وَرَقة؛ فليتأمّل.

وليس المقصود الآن بيانَ فساد مذهبهم، فقد ذكرتُ ذلك في كتاب «المستظهري» أولاً؛ وفي كتاب «حُجّة الحق» ثانياً، وهو جواب كلامٍ لهم عُرض عليّ ببغداد؛ وفي كتاب «مفصل الخلاف» الذي هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً، وهو جواب كلام عُرض عليّ بهمذان؛ وفي كتاب «الدَّرَج» المرقوم بالجداول رابعاً، وهو من ركيك كلامهم الذي عُرض عليّ بطوس؛ وفي كتاب «القسطاس المستقيم» خامساً، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم وإظهار الاستغناء عن الإمام [المعصوم] لمن أحاط به.

بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء، بل هم، مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام، طال ما جاريناهم فصدّقناهم في الحاجة الى التعليم والى المعلم المعصوم وأنه الذي عيّنوه، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلّموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها، فضلاً عن القيام بحلّها! فلما عجزوا أحالوا [على] الإمام الغائب، وقالوا: (إنه) لا بد من السفر اليه. والعجب أنهم ضيّعوا عمرهم في طلب المعلّم وفي التبجّح بالظفر به، ولم يتعلّموا منه شيئاً أصلاً، كالمتضمّخ بالنجاسة يتعب في طلب الماء حتى اذا وجده لم يستعمله، وبقي متضمّخاً بالخبائث.

ومنهم من ادّعى شيئاً من علمهم، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس، وهو رجل من قدماء الأوائل، ومذهبه أركّ مذاهب الفلسفة، وقد ردّ عليه أرسطاطاليس، بل استركّ كلامه واسترذله، وهو المحكيّ في كتاب «إخوان الصفا»، وهو على التحقيق حشو الفلسفة.

فالعجب ممن يتعب طول العمر في طلب العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم

الرَّكيكُ المُسْتَغَثّ ، وَيَظُنّ بأنه ظَفَر بأقصى مَقَاصِد العلوم ! فهؤلاء ايضاً جرّبناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ؛ فرجع حاصِلُهم الى استدراج العوام ، وضُعفاءِ العقول ببيان الحاجة الى المعلّم ، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة الى التعليم بكلامٍ قويّ مُفحِم ، حتى اذا ساعدهم على الحاجة الى المعلّم مساعد ، وقال : هاتِ عِلْمَه وأفِدْنا من تعليمه ! وقف وقال : الآن اذا سلّمتَ لي هذا فاطلبه ، فإنما غرضي هذا القدر فقط . اذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حلّ أدنى الإشكالاتِ ، بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه .

فهذه حقيقة حالِهم فأخْبُرْهم تَقْلُهم فلمّا خبرناهم نفضنا اليد عنهم (ايضاً).

طرق الصوفية

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل (بها) الى تخلية القلب عن غير الله (تعالى) وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر علي من العمل. فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي(١) (رحمه الله): وكتب «الحارث المحاسبي»(٢)، والمتفرقات المأثورة عن «الجنيد»، و«الشبلي»، و«أبي يزيد البسطامي» [قدس الله أرواحهم]، وغيرهم من المشايخ: حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان؟ وبين أن تعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن تكون سكران! بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء! والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد الصحة. فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه، وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا!

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله

(١) ابو طالب المكى توفى سنة ٣٨٦ هـ. [٩٩٦ م.] فى بغداد

(١) جنيد البغدادى توفى سنة ٢٩٨ هـ. [٩١١ م.] فى بغداد

بطريق العلم فقد حصّلته ، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلّم ، بل بالذوق والسلوك . وكان (قد) حصل معي — من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية — ايمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة ، وباليوم الآخر.

فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معيّن محرّر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع (لي) في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكفّ النفس عن الهوى ، وأنّ رأس ذلك كلّه، قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمّة على الله تعالى. وأن ذلك لا يتمّ الا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالي ، فاذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ؛ ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمّة ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكّرت في نيّتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحرّكها طلب الجاه وانتشار الصيت ؛ فتيقّنت أني على شفا جرف هار ، وأني قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أتفكّر فيه مدّة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمّم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلّ العزم يوماً ، وأقدّم فيه رجلاً وأؤخّر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشيّة . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبقَ من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء

وتخييل! فان لم تستعدّ الآن للآخرة فمتى تستعدّ ؟ وإن لم تقطع الآن [هذه العلائق] فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فانها سريعة الزوال ؛ فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلّم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسّر لك المعاودة .

فلم أزل أتردّد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مائة . وفي هذا الشهر جاوز الامر حدّ الاختيار الى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرّس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة [إليّ] ، فكان لا ينطق لساني بكلمة [واحدة] ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم قدم الطعام والشراب . فكان لا ينساغ لي شربة ، ولا تنهضم (لي) لقمة ؛ وتعدّى الى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، إلا بأن يتروّح السرّ عن الهمّ الملمّ .

ثم لمّا أحسست بعجزي ، وسقط بالكلّية إختياري ، إلتجأت الى الله تعالى إلتجاء المضطرّ الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطرّ اذا دعاه ، وسهّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال (والأهل والولد والأصحاب) ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام ؛ فتلطّفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوّز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب

دِيني، إذ ظَنّوا أن ذلك هو المَنصبُ الأعلى في الدِّينِ، وكان ذلك مَبلَغهم من العِلمِ.

ثم ارتبكَ الناس في الاستنباطات، وظنّ من بَعُدَ عن العِراق، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الوُلاة؛ (وأما مَن قرُبَ من الوُلاة) فكان يُشاهِدُ إلحاحهم في التعلّقِ بي والانكباب عليّ، وإعراضي عنهم، وعن الالتفات الى قولهم، فيقولون: «هذا أمرٌ سَماويّ، وليس له سببٌ إلا عَيْنٌ أصابت أهل الاسلام وزُمرةَ أهل العلم»!

ففارقتُ بغدادَ، وفرّقتُ ما كان مَعي من المال، ولم أدّخر الا قدرَ الكَفافِ، وقُوتَ الأطفال؛ ترخّصاً بأنّ مالَ العراقِ مُرصَدٌ للمَصالح لكونه وقفاً على المُسلمين. فلم أرَ في العالَمِ مالاً يأخذه العالِمُ لعياله أصلحَ منه.

ثم دخلتُ الشامَ، وأقمتُ به قريباً من سَنتَين لا شُغلَ لي الا العُزلةُ والخلوةُ؛ والرياضةُ والمجاهدةُ، اشتغالاً بتزكيةِ النفسِ، وتهذيبِ الأخلاقِ، وتصفيةِ القلبِ لذِكرِ اللهِ (تعالى)، كما كنتُ حصّلته من كُتبِ الصوفيةِ. فكنتُ اعتكفُ مُدّةً في مسجد دِمَشقَ، أصعدُ منارةَ المسجدِ طُولَ النهارِ، وأغلِقُ بابها على نفسي.

ثم رحلتُ منها الى بيت المَقدِسِ، أدخلُ كل يومٍ الصخرةَ، وأغلقُ بابها على نفسي.

ثم تحرّكتْ فيّ داعيةُ فريضةِ الحجِ، والاستمدادُ من بركاتِ مكةَ والمدينةِ، وزيارةُ رسولِ اللهِ ﷺ بعد الفَراغ من زيارة الخليل صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ فسِرتُ الى الحِجاز.

ثم جذبَتني الهِمَمُ، ودعَواتُ الأطفالِ الى الوطن؛ فعاودتُه بعد أن كنتُ أبعدَ الخلقِ عن الرجوعِ اليه. فآثرتُ العُزلةَ [به] أيضاً حِرصاً على الخلوة، وتصفيةِ القلبِ للذِكرِ.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغيّر في وجه المراد، وتشوّش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو [لي] الحال إلا في أوقات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود اليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين؛ وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله (تعالى) خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا اليه سبيلاً. فان جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من (نور) مشكاة النبوّة؛ وليس وراء نور النبوّة على وجه الارض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها — وهي أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله (تعالى)، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات (والمشاهدات)، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، الى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبّر أن يعبّر عنها الا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.

وعلى الجملة ينتهي الأمر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بيّنا وجه الخطإ فيه

في كتاب «المَقْصِدِ الأَسْنَى»؛ بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يَزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لستُ أذكره فظُنَّ خيراً ولا تَسألْ عن الخَبَرِ!

وبالجملة، فمن لم يُرزَق منه شيئاً بالذَّوق، فليس يُدرِكُ من حقيقة النبوّة الا الاسم. وكراماتِ الأولياءِ [هي] على التحقيق بداياتُ الأنبياء، وكان ذلك أول حالِ رسولِ اللهِ ﷺ، حينَ أقبلَ الى جبلِ حِراء، حيث كان يخلُو فيه بربّه ويتعبّدُ، حتى قالت العرب: «إن محمداً عشِقَ ربَّه!».

وهذه حالة، يتحققها بالذَّوق من يَسلكُ سبيلها. فمن لم يُرزقِ الذَّوق، فيتيقّنها بالتجربة والتسامُع، إن أكثرَ معهم الصُّحبة، حتى يَفهمَ ذلك بقرائنِ الأحوالِ يقيناً. ومن جالسهم، استفادَ منهم هذا الإيمانَ. فهم القومُ لا يَشقى جليسهم. ومن لم يُرزقْ صحبتهم، فليعلَمْ إمكانَ ذلك يقيناً بشواهد البُرهان، على ما ذكرناه في كتاب «عجائب القلب» من كتب «إحياءِ علومِ الدِّين».

والتحقيق بالبرهان علم، وملابسةُ عينِ تلك الحالةِ ذوق، والقبول من التسامع والتجربةِ بحُسنِ الظنِّ إيمان. فهذه ثلاث درجاتٍ: «يَرفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العِلمَ درجاتٍ».

ووراء هؤلاء قوم جُهّال، هم المُنكِرون لأصل ذلك، المُتعجّبون من هذا الكلام، يَستمعون ويَسخَرون، ويقولون: العُجبَ! إنهم كيف يَهذُون! وفيهم قال الله تعالى: «ومنهم من يَستمِعُ اليكَ، حتى اذا خرجوا من عِندِكَ قالوا للذين أوتوا العِلمَ ماذا قال آنفاً، أولئكَ الذين طبعَ اللهُ على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم» (فأصمّهم وأعمى أبصارهم).

ومما بانَ لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم، «حقيقة النبوّة وخاصيّتُها».

ولا بدّ من التنبيه على أصلها لشدة مَسيسِ الحاجةِ اليها.

حقيقة النبوة

واضطرار كافة الخلق اليها

إعلم : أنّ جوهر الإنسان في أصل الفطرة ، خُلِقَ خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله (تعالى) ؛ والعوالم كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى ، كما قال : ﴿ وما يعلم جنود ربك الا هو ﴾ ، وانما خبره من العوالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات خُلِقَ ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق في الانسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واللين والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له [حاسّة] البصر ، فيدرك بها الألوان والأشكال ، وهو أوسع عوالم المحسوسات .

ثم ينفتح فيه السمع ، فيسمع الأصوات والنغمات .

ثم يخلق له الذوق . وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات ، فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده : فيدرك فيه أموراً زائدة على (عالم) المحسوسات ؛ لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى الى طور آخر ، فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، وامورا لا توجد في الأطوار التي قبله .

ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في

المُستقبَل، وأمورٌ أخَر، العقلُ معزولٌ عنها كعزل قوّة التميز عن إدراك المعقولات وكعزل قوّة الحِسّ عن مُدركات التميز. وكما أن المميز لو عرضت عليه مُدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أبوا مُدركات النبوّة واستبعدوها: وذلك عين الجهل: إذ لا مُستنَدَ لهم إلا أنه طورٌ لم يَبلغه ولم يُوجَد في حقه، فيظن أنه غير موجودٍ في نفسه. والأكمه، لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال، وحُكي له ذلك ابتداءً، لم يفهمها ولم يُقِرّ بها. وقد قرّب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجاً من خاصيّة النبوّة، وهو النوم، إذ النائم يُدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحاً وإمّا في كِسوة مثالٍ يكشف عنه التعبير. وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه – وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت، ويزول (عنه) إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب. – لأنكره، وأقام البرهان على استحالته، وقال: القوى الحساسة أسباب الإدراك، فمن لا يُدرك الأشياء مع وجودها وحضورها، فبأن لا يُدرك مع ركودها أولى وأحق. وهذا نوع قياسٍ يكذبه الوجود والمشاهدة. فكما أن العقل طورٌ من أطوار الآدمي، يحصل فيه عين يُبصر بها أنواعاً من المعقولات، والحواس معزولة عنها، فالنبوّة أيضاً عبارة عن طورٍ يحصل فيه عينٌ لها نورٌ يظهر في نورها الغيب، وأمورٌ لا يُدركها العقل.

والشك في النبوّة إما أن يقع: في إمكانها، أو في وجودها ووقوعها، أو في حصولها لشخصٍ معيّن.

ودليل إمكانها وجودها. ودليل وجودها وجود معارفَ في العالم لا يُتصوَّر أن تُنال بالعقل، كعلم الطب والنجوم؛ فإنّ مَن بحث عنهما علم بالضرورة أنهما لا تُدركان إلا بإلهامٍ إلهيّ وتوفيقٍ من جهة الله (تعالى)، ولا سبيل إليها بالتجربة. فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كلّ ألفِ سنةٍ مرة، فكيف يُنال ذلك بالتجربة؟ وكذلك خواصّ الأدوية. فتبيّن بهذا البرهان أن في الإمكان وجودَ طريقٍ لإدراك هذه الأمور التي لا يُدركها العقل – وهو المراد بالنبوّة – لا أنّ النبوّة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مُدركات العقل إحدى

خواص النبوة، ولها خواص كثيرة سواها. وما ذكرنا فقطرة من بحرها؛ إنما ذكرناها لأن معك أنموذجاً منها، وهو مدركاتك في النوم؛ ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الانبياء (عليهم الصلاة والسلام)، ولا سبيل اليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً.

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة، فإنما يدرك بالذوق، من سلوك طريق التصوف؛ لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم، ولولاه لما صدقت به. فإن كان للنبي خاصية ليس لك منها أنموذج، ولا تفهمها أصلاً: فكيف تصدق بها؟ وإنما التصديق بعد الفهم؛ وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس (اليه). فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة.

فإن وقع لك الشك في شخص معين، أنه نبي أم لا، فلا يحصل اليقين الا بمعرفة أحواله، إما بالمشاهدة، او بالتواتر والتسامع؛ فإنك اذا عرفت الطب والفقه؛ يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم، وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم؛ ولا تعجز ايضاً عن معرفة كون الشافعي (رحمه الله) فقيهاً، وكون جالينوس طبيباً، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير، [بل] بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما، فيحصل لك علم ضروري بحالهما. فكذلك اذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار، يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب، وكيف صدق ﷺ في قوله: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»؛ وكيف صدق في قوله: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه»؛ وكيف صدق في قوله: «من أصبح وهمومه هم واحد كفاه الله (تعالى) هموم الدنيا والآخرة»، فاذا جربت ذلك في الألف والألفين والآلاف، حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه

فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعباناً، وشق القمر، فانّ ذلك اذا نظرت اليه وحده، ولم تنضمّ اليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، ربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله تعالى إضلال فإنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وترد عليك أسئلة المعجزات، فاذا كان مستند إيمانك الى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة، فينخرم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة عليها، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدري، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد، فهذا هو الايمان القوي العلمي.

وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية.

فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي أقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه.

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إنّي ، لمّا واظبتُ على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، بانَ لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسبابٍ لا أحصيها ، مرّةً بالذوق ، ومرّةً بالعلم البرهانيّ ، ومرّةً بالقبول الإيمانيّ : أن الإنسان خلق من بدنٍ وقلبٍ — وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة — ، وأنّ البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ؛ وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو « إلا من أتى الله بقلب سليم » ؛ وله مرض فيه هلاكه الأبديّ الأخرويّ ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرض » ؛ وأن الجهل بالله سمّ مهلك ؛ وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى ، داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى ، دواؤه الشافي ؛ وأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته ، إلا بأدوية ؛ كما لا سبيل إلى معالجة البدن الا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين إطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة ، بأن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل . وكما أن الأدوية تركبت من (أخلاط مختلفة) النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو إختلاف مقاديرها عن سرّ هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي

أدوية داءِ القلوب ، مركّبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إنّ السجود ضِعفُ الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ؛ ولا يخلو عن سِرّ من الأسرار ، هو من قبيل الخواصّ التي لا يطّلع عليها إلا بنور النبوّة . ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط ، بطريق العقل ، لها حكمةً ، أو ظنّ أنها ذُكرت على الاتفاق ، لا عن سِرّ إلهيّ فيها ، يقتضيها بطريق الخاصيّة . وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها ، وزوائد هي متمّماتها ، لكلّ واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسُنن متمّمات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرّفه أن عرّفنا ذلك وشهد للنبوّة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يُدرك بعين النبوّة ، وأخذ بأيدينا وسلّمنا إليها تسليم العُميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيّرين الى الأطباء المشفقين . فإلى ههنا مجرى العقل وخطاه وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهّم ما يُلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدّة الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوّة ، ثم في حقيقة النبوّة ، ثم في العمل بما شرحته النبوّة ، وتحقّقنا شيوع ذلك بين الخلق ؛ فنظرتُ الى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

١ — سببٌ من الخائضين في علم الفلسفة ؛

٢ — وسببٌ من الخائضين في طريق التصوّف ؛

٣ — وسببٌ من المنتسبين الى دعوى التعليم ؛

٤ — وسببٌ من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإني تتبّعت مدّة آحاد الخلق ، أسأل من يقصّر منهم في متابعة الشرع (وأسأله) عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسرّه وقلت له : ما لك تقصّر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولستَ تستعدّ لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك

لا تبيعُ الاثنين بواحد ، فكيف تبيعُ ما لا نهاية له بأيامٍ معدودة ؟ وإن كنتَ لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبّر نفسك في طلب الإيمانِ ، وانظر ما سببُ كفرِك الخفيِّ الذي هو مذهبُك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرّح به تجمّلاً بالايمان وتشرّفاً بذكرِ الشرع ! !

فقائل يقول : إن هذا أمرٌ لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماءُ أجدرَ بذلك ، وفلانٌ من المشاهير بين الفضلاء لا يصلّي ، وفلانٌ يشرب الخمر ، وفلان يأكلُ أموال الأوقاف وأموال اليتامى ، وفلانٌ يأكل إدرار السلطانِ ولا يحترزُ عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! وهلمّ جرّاً الى أمثاله .

وقائل ثانٍ يدّعي (علم) التصوّفِ ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقّى عن الحاجةِ الى العبادة !

وقائل ثالث يتعلّل بشبهة أخرى من شبهاتِ أهل الإباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلّوا عن طريق التصوّف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق اليه متعسّر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكّم لا حجّة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ !

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوّة ، وأن حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبّداتها ضبط عوامّ الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوامّ الجهّال حتى أدخل في حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغنٍ فيها عن التقليد ! !

فهذا منتهى إيمانِ من قرأ (مذهب) فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلّم ذلك من كتب ابن سينا[1] وأبي نصر الفارابي[2] . وهؤلاء هم المتجمّلون بالإسلام .

(١) ابن سينا حسين توفي سنة ٤٢٨ هـ. [١٠٣٧ م.]

(٢) محمد الفارابي مات سنة ٣٣٩ هـ. [٩٥٠ م.] في الشام

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن، ويحضر الجماعات والصلوات، ويعظم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر، وأنواعاً من الفسق والفجور! وإذا قيل له: «إن كانت النبوة غير صحيحة، فلم تصلي؟» فربما يقول: «لرياضة الجسد، ولعادة أهل البلد، وحفظ المال والولد!» وربما قال: «الشريعة صحيحة، والنبوة حق!» فيقال: «فلم تشرب الخمر؟» فيقول: «إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك، وإني أقصد به تشحيذ خاطري.» حتى إن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا، وأن يعظم الأوضاع الشرعية، ولا يقصر في العبادات الدينية، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً؛ فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان، والتزام العبادات، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي.

فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم. وقد انخدع بهم جماعة، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم، إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق، وغير ذلك مما هو ضروري لهم، على ما بينا علته من قبل.

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم الى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملية بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم [وطرقهم] -أعني [طرق] الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء- انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت، محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟ ثم قلت في نفسي: «متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم الى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟»

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار

الحقّ بالحُجّة. فقدّرَ اللهُ تعالى أنْ حرّكَ داعيةَ سُلطانِ الوقتِ من نفسه، لابتحريكٍ
من خارجٍ. فأمرَ أمرَ إلزامٍ بالنهوضِ الى نيسابورَ، لتداركِ هذه الفترة. وبلغ
الإلزامُ حدًّا كانَ ينتهي، لو أصررتُ على الخلافِ، الى حدّ الوحشةِ. فخطر لي
أنّ سببَ الرخصةِ قد ضعُفَ، فلا ينبغي أن يكونَ باعثكَ على مُلازمةِ العُزلةِ
الكسلَ والإستراحةَ، وطلبَ عزّ النفسِ وصَوْنِها عن أذى الخلقِ، ولم تُرخِّص
لنفسكَ عُسرَ مُعاناةِ الخلقِ، والله سُبحانه وتعالى يقول: «بسم الله الرحمن
الرحيم: الم. أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون؟ ولقد
فتنّا الذينَ من قبلهم»، الآيةَ. ويقولُ عزّ وجلّ لرسوله وهو أعزّ خلقه: «ولقد
كُذِّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا، حتى أتاهم نصرُنا؛
ولا مبدّلَ لكلماتِ الله، ولقد جاءكَ من نبإ المرسلين». ويقولُ عزّ وجلّ:
«بسم الله الرحمن الرحيم: يس. والقرآنِ الحكيمِ، إلى قوله: إنما تُنذرُ
من اتّبعَ الذكرَ وخشيَ الرحمنَ بالغيبِ». فشاورتُ في ذلك جماعةً من أربابِ
القلوبِ والمشاهداتِ، فاتّفقوا على الإشارة بتركِ العُزلةِ، والخروجِ من الزاويةِ؛
وانضافَ الى ذلكَ مناماتٌ من الصالحين كثيرةٌ متواترةٌ، تشهدُ بأنّ هذه الحركةَ
مَبدأُ خيرٍ ورُشدٍ قدّرَها اللهُ سُبحانه على رأسِ هذه المائة؛ فاستحكمَ الرجاءُ،
وغلبَ حُسنُ الظنّ بسببِ هذه الشهاداتِ. وقد وعدَ اللهُ سبحانه بإحياءِ دينه على
رأسِ كلّ مائةٍ. ويسّرَ اللهُ تعالى الحركةَ الى نيسابورَ للقيام بهذا المُهمّ في
ذي القعدةِ، سنةَ تسعٍ وتسعين وأربعِ مائةٍ. وكانَ الخروجُ من بغدادَ في ذي القعدة
سنةَ ثمانٍ وثمانينَ وأربعِ مائةٍ. وبلغتْ مُدّةُ العُزلةِ إحدى عشرةَ سنةً. وهذه حركةٌ
قدّرَها اللهُ تعالى، (وهي) من عجائبِ تقديراتِه التي لم يكن لها انقداحٌ في القلبِ في
هذه العُزلةِ، كما لم يكن الخروجُ من بغدادَ، والنزوعُ عن تلك الأحوالِ مما
خطرَ إمكانُه أصلاً بالبالِ؛ والله تعالى مُقلّبُ القلوبِ والأحوالِ و«قلبُ المؤمنِ
بين أصبعينِ من أصابعِ الرحمنِ». وأنا أعلمُ أنّي وإن رجعتُ الى نشرِ العلمِ،
فما رجعتُ! فإنّ الرجوعَ عودٌ الى ما كانَ، وكنتُ في ذلك الزمانِ أنشرُ العلمَ

الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فأدعو الى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ؛ يعلم الله ذلك مني ؛ وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأصل الى مرادي أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أومن ايمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة الا بالله (العلي العظيم) ؛ وأني لم أتحرك ، لكنه حركني ؛ وأني لم أعمل ، لكنه استعملني ؛ فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ؛ وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

* * *

ونعود الآن الى ما ذكرناه من أسباب ضعف الايمان بذكر طريق ارشادهم وانقاذهم من مهالكهم :

أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من اهل التعليم ، فعلاجهم ما ذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره (في) هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد ايمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود (علم) خواص الأدوية والنجوم وغيرهما . وانما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وانما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم ؛ ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ، كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه ، برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وانما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص ، يقتضي

طالعه أن يكون متبوعاً ؛ وليس هذا من النبوّة في شيءٍ . بل الإيمان بالنبوّة : أن يُقرّ بإثبات طورٍ وراء العقل ، تنفتح فيه عينٌ يُدرك بها مُدرَكات خاصّة ، والعقلُ معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواسّ عن إدراك المعقولات . فإن لم يجوّز هذا ، فقد أقمنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده . وإن جوّز هذا ، فقد أثبت ، أنّ ههنا أموراً تسمّى خواصّ ، لا يدور تصرّف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذّبها ويقضي باستحالتها . فإنّ وزن دانق من الأفيون سمّ قاتلٌ لأنه يجمّد الدم في العروق لفرط برودته . والذي يدّعي عِلم الطبيعة يزعم أن ما يبرد من المركّبات إنما يبرد بعنصري الماء والتراب ؛ فهما العنصران الباردان . ومعلوم أنّ أرطالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن إلى هذا الحدّ . فلو أخبر طبيعيٌّ بهذا ولم يجرّبه ، لقال : هذا محال ، والدليل على استحالته أنّ فيه ناريةً وهوائيةً ، والهوائية والنارية لا تزيدها برودةً ؛ فنقدّر الكلّ ماءً وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد . فإن انضمّ إليه حاران فبأن لا يوجب ذلك أولى . ويقدّر هذا برهاناً ! وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات ، مبنيّ على هذا الجنس ! فإنهم تصوّروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدّروا استحالته ، ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادّعى مدّعٍ أنه عند ركود الحواسّ ، يعلم الغيب ، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبّة ، يوضع في بلدة فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى [شيئاً] من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟ لقال : هذا محال وهو من جملة الخرافات ! وهذه حالة النار ، ينكرها من لم ير النار اذا سمعها . وأكثر [إنكار] عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي : قد اضطررت الى أن تقول : في الأفيون خاصيّة في التبريد ، ليست على قياس المعقول بالطبيعة ، فلِمَ لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواصّ ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ،

بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق، بهذا الشكل:

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء، وتنظر اليهما الحامل بعينها، وتضعهما تحت قدميها، فيسرع الولد في الحال الى الخروج. وقد أقروا بإمكان ذلك وأوردوه في «عجائب الخواص»، وهو شكل فيه تسعة بيوت يرقم فيها رقوم مخصوصة، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر، قرأته في طول الشكل أو في عرضه أو على التأريب.

فيا ليت شعري! من يصدق بذلك، ثم لا يتسع عقله للتصديق، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين، والظهر بأربع، والمغرب بثلاث، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة؟ وسببها اختلاف هذه الأوقات. وانما تدرك هذه الخواص بنور النبوة. والعجب انا لو غيرنا العبارة الى عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الأوقات، فنقول: «أليس يختلف الحكم في الطالع، بأن تكون الشمس في وسط السماء، او في الطالع، او في الغارب، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج، وتفاوت الأعمار والآجال، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب، فهل للتصديق بذلك سبب؟» الا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم، لعله جرب كذبه مائة مرة. ولا يزال

يعاودُ تصديقه ، حتى لو قال المنجِّم [له] : إذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبستَ ثوباً جديداً في ذلك الوقت قُتلتَ في ذلك الثوب ! ؛ فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجِّم وقد عرف كذبه مرات !

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر الى الاعتراف بأنها خواص – معرفتها معجزة لبعض الأنبياء – فكيف ينكر مثل ذلك ، فيما يسمعه من قول نبيّ صادقٍ مؤيَّدٍ بالمعجزات ، لم يُعرف قط بالكذب ! (ولم لا يتسع لإمكانه !)

فإن أنكر فلينظر في إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ، ورمي الجمار ، وعدد أركان الحج ، وسائر تعبّدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً . فإن قال : قد جرّبت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ، وهذا لم أجرّبه ، فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟ ؛ وإن أقررت بإمكانه ، فأقول : ؛ إنك لا تقتصر على تصديق ما جرّبته بل سمعت أخبار المجرّبين وقلّدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء فقد جرّبوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك .

على أني أقول : ؛ وإن لم تجرّبه ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً . فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرّب (المرض) ، فمرض وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء فقال : ؛ هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . ؛ فماذا تقتضيه عقله ؛ إن كان الدواء مرّاً كريه المذاق ، أن يتناول ؟ أو يكذّب ويقول : ؛ أنا [لا] أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجرّبه ! ؛ فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : ؛ وبم أعرف شفقة النبي ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟ ، فأقول : ؛ وبم عرفت [شفقة

أبيك] وليس ذلك أمراً محسوساً؟ بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لا تتمارى فيه.

فمن نظر في أقوال الرسول ﷺ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف، الى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة الى ما يصلح به دينهم ودنياهم، تحصل له علم ضروري، بأن شفقته ﷺ على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده.

وإذا نظر الى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه وفي الأخبار، والى ما ذكره في آخر الزمان، فظهر ذلك كما ذكره، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص، والأمور التي لا يدركها العقل.

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ. فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار، تعرف ذلك بالعيان.

وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة، ذكرناه لشدة الحاجة اليه في هذا الزمان.

وأما السبب الرابع — وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء — فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور:

أحدها: أن تقول: «إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر [ولحم الخنزير] والربا، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة، وأنت تعرف ذلك وتفعله، لا لعدم إيمانك بأنه معصية، بل لشهوتك الغالبة عليك، فشهوته كشهوتك، وقد غلبته كما غلبتك، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين.

وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد، وإن زجره

الطبيب عنه ! ولا يدلّ ذلك على أنه غير ضارّ ، او على أن الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا يحمل هفوات العلماء .

الثاني : أن يقال للعامي : ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة، ويظنّ أن علمه ينجيه، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله، لفضيلة علمه . وإن جاز أن يكون زيادة حجّة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن . فهو ، وإن ترك العمل ، يُدلي بالعلم . وأما انت ايها العامي ! إذا نظرت اليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك !

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي ، لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصرّاً على المعاصي أصلاً ، إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سمّ مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى [منه] .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى . وأما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً [ورجاء] ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدلّ على ضعف الايمان . فالمؤمن مفتن توّاب ، وهو بعيد عن الإصرار والإكباب .

* * *

هذا ما أردت أن أذكره في ذمّ الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما، لا بطريقه .

* * *

نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه، وأرشده إلى الحق وهداه، وألهمه ذكره حتى لا ينساه، وعصمه عن شرّ نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

